فيا ويلاه من جهل على جهل، ظلمات بعضها فوق بعض، ويا علياه من علم على علم نور على نور؟.

﴿... كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ يخشى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن لا يخشى مغبة أن يخشى!.

والخشية - وهي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يُخشى منه - لزامها العلم قدرها، وهي حالة في القلب تجعل الخاشي خاشعاً لربه خاضعاً، في رقابة دائبة على أقواله وأفعاله وأحواله قدر معرفته بربه. يخشاه لعدله تعالى على ظلمه هو وعظمُه تعالى.

فمن لا يخشى الله ليس من العلماء مهما كان أعلمهم في الصلاحات، حتى الإلهية عقلية وعلمية، ومن يخشى الله فهو من العلماء مهما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فميزانية العلم هي حسب ميزانية الخشية في ميزان الله! وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «العلم علمان علم في القلب فذاك العلم النافع وعلم على اللسان فتلك حجة الله على خلقه»[(١)] حيث يحتج به على عالمه وعلى من يسمعه من عالمه!

أما علمتم أن لله عباداً أسكنتهم خشيته من غير عي ولا بكم، إنهم لهم الفصحاء النطقاء النبلاء العلماء بأيام الله غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟...»[(٢)].

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٠ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: ..

(٢) الدر المنثور ٥: ١٥٠ - أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال: أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس بعدما ذهب بصره حتى دخل المسجد الحرام فإذا قوم يمترون في حلقة لهم عند باب بني شيبة فقال: أمل بي إلى حلقة المراء فانطلقت به حتى أتاهم فسلم=

وقد سئل رسول الله ﷺ عن العالم والعابد فقال: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية[١] فليتزود المؤمن على ضوء فطرته وعقله وشرعته بسائر العلم، تذرعاً إلى معرفة أكثر بالله.

أجل «وما العلم بالله والعمل إلا إلفان مؤتلفان فمن عرف الله خافه وحثه الخوف على العمل بطاعة الله. وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له ورغبوا إليه...»[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾:

هؤلاء هم من العلماء بالله الذين يخشون الله، دون الجهال الأغفال الذين لا يتلون كتاب الله، مهما أقاموا الصلاة وأنفقوا، ودون من لا يصلون ولا ينفقون مهما تلوا كتاب الله، فإنما هو الإيمان وعمل الصالحات عن علم الكتاب تفصيلاً باجتهاد، أم إجمالاً بتقليد عن اجتهاد.

والتلاوة في حق المعني منها هي المتابعة: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾[٣] فهي أعم من متابعة القراءة والاستماع، فالتدبر، فالتصديق

= عليهم فأرادوه على الجلوس فأبى عليهم وقال انتسبوا إليّ أعرفكم فانتسبوا إليه فقال: «أما علمتم»... أقول لعله رواية عن رسول الله لم يذكر أنها عنه ﷺ.

(١) المصدر أخرج عبد بن حميد عن مكحول قال سئل رسول الله ﷺ... ثم قال: إن الله وملائكته وأهل السماء وأهل الأرض والنون في البحر ليصلون على معلمي الخير.
وفي المجمع في الآية روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله ومن ثم يصدق فعله قوله فليس بعالم، وفي الحديث: أعلمكم بالله أخوفكم لله.

(٢) تفسير البرهان عن الكافي بسند عن أبي حمزة الثمالي عن زين العابدين عليه السلام قال:... قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

والإيمان، فالتطبيق بعمل الإيمان، إذا فـ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ...﴾ هي من خلفيات التلاوة حقها، أفردت بالذكر لأنها هي القاعدة الأصيلة التي تتبناها التلاوة، وإلا فرب تال القرآن والقرآن يلعنه!

ثم الإنفاق هو الإفناء ألا يطالبوا به تجارة تبور، فيطلبوا به جزاءً أو شكوراً، فإنما ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ إفناءً في ظاهر الحال وإبقاءً بزيادة في باطن الحال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

و﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ يعم كافة الأرزاق ولا سيما الروحية، من علم وأخلاق أما هيه: ﴿سِرًّا﴾ عن الناس ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ فإن لكلٍّ مجالاً يناسبه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ في نفسه حيث يقتدى به فهو - إذاً - من شعائر الله ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾... ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنفسكم ابتغاء عن رئاء وسمعة.

﴿...إِن تُبْدُواْ ... فَنِعِمَّا هِىَ﴾ في نفسه حيث يقتدى به فهو - إذاً - من شعائر الله ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾... ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنفسكم ابتعاداً عن رئاء وسمعة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ لهولاء الأكارم، أي لمم طارىء في سبيل الله.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كله، ثابتاً ما بقي الدهر دون نسخ ولا تحريف، مهما كان ما بين يديه حقاً لردح من الزمن، ولكنه بطل أولاً بتحريف ومن ثم بنسخ،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

فهو الترجمة الصحيحة النهائية لحقيقة الكون، والصحيفة المقروة من كتاب الكون وهو الصفحة الصامتة!

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ . . . مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۚ﴾ من وحي، دون خليطه بغير وحي، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ إنهم بحاجة إلى حق لا ينسخ ولا يحرف، وإنهم حرفوا كتابات السماء من قبل، لذلك أوحى إليك ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ كله هدى للناس.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هنا هو القرآن لسابق ذكره ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فـ﴿ثُمَّ﴾ بعد ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾. . . .

فمن هو الوارث للكتاب القرآن بعد من أوحي إليه؟ أهم كل المسلمين وكما في بني إسرائيل ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾[1] وقد تشمل الوارث الشاك!: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾[2] كما يشمل حملة وحي الكتاب الآخرين: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾[3].

وهنا ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ دون من هو في شك مريب، ولا المتوسطين في الإيمان، بل المصطفين، فميراث الكتاب هنا ميراث خاص لمن يحمله كما حمِّله من أنزل عليه، وهناك عام يعم كل من

(١) سورة غافر، الآيتان: ٥٣، ٥٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

حمِّله!. صحيح إن ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا يعم كافة المسلمين من أهل الجنة كما تشهد التالية: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾...[١] مقابلة لهم باهأ النار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾....

ولكن وارث الكتاب هنا ليس ﴿عِبَادِنَا﴾ ليعم المسلمين، بل ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ إذاً فهم المصطفون من المسلمين منذ إيراثه إلى يوم الدين، لا كلهم.

ولأن الاصطفاء في مصطلح القرآن ليس إلّا للمعصومين، أنبياء وسواهم من المخلصين[٢] فـ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ لا تعني إلا المعصومين بعد الرسول ﷺ من أمته، أورثوا القرآن ليحملوه كما حمله من أوحي إليه كميراث خاص.

ثم التقسيم الثلاثي لـ﴿عِبَادِنَا﴾ إلى ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات،... دليل قاصد قاطع لا مرد له إن ليسوا داخلين في ذلك الإيراث، إلّا أن يسوّى بين «ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات» في أنهم من ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾[٣] وتلك إذاً تسوية ضيزى!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) فآيات الاصطفاء بين نبي مصطفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. أم وملك مصطفى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].
ومعصوم غير نبي ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ...﴾ [آل عِمرَان: ٤٢] وملك عادل مصطفى ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] أم دين مصطفى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢].
فأقل المصطفين في قرينة خاصة هم أعدل العدول!

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٥١ - أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة وفيه أخرج الطبراني والبيهقي في=

فحتى ولو عمت ﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ غير المعصوم، ليست لتعم المأثوم في تلك المقابلة الثلاثية الواضحة.

ثم من هذا الذي اصطفي عليه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وليس للظالم صفاء حتى يفضل في صفائه على سائر الأصفياء وسواهم!.

هنا الله تعالى يقتسم عباده إلى هؤلاء الثلاثة ليوضح من هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وعلى من اصطفاهم؟

فالمسلمون بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات والظالم لغيره هو خارج من ﴿عِبَادِنَا﴾ والمصطفى بينهم - بطبيعة الحال - ليس إلّا السابق بالخيرات، فهم مفضلون على أصحاب اليمين المقتصدين، فضلاً عن الظالمين: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[1].

إذاً فورثة القرآن بعد نبي القرآن هم المصطفون السابقون المقربون، دون أصحاب اليمين المقتصدين، فضلاً عن الظالمين المسلمين وإن لم يكونوا من أصحاب المشأمة والداخلين في الجحيم!

ذلك المثلث البارع الرائع من مواصفات ورثة القرآن لا نجده في سائر القرآن اللّهم إلّا لنبي القرآن ثم من أورثوا القرآن من بعده.

وهنا قيد ﴿ظَالِمٌ﴾ بـ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ لإخراج الظالمين من المسلمين

= البعث عن أسامة بن زيد في الآية قال قال رسول الله ﷺ: كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة.

أقول: صحيح أن كلهم من هذه الأمة كما تلمحناه من الآيات، وكلهم من أهل الجنة على شروط الأهلية، ولكن كيف يكون هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة؟ تنزيلاً للمصطفين إلى منزلة الظالمين وترفيعاً للظالمين إلى منزلة المصطفين؟.

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧-١١.

لغيرهم، فالمعتدون منهم الطغاة على الإسلام والمسلمين ليسوا من أهل الجنة والسلام.

و﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ لا ظالم لنفسه كأصل في حياته، ولا سابق بالخيرات، بل هم عوان بين ذلك، فهم المعتدلون من أمة الإسلام عدولاً وسواهم فـ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هم غير العدول الذين قد تنالهم الشفاعة وهم مصيرهم إلى الجنة، من أصحاب الكبائر الصالحة للشفاعة، فأما أمثال يزيد ومعاوية الطاغية وأضرابهم من طغاة هذه الأمة، فخارجون عن هذا التقسيم، داخلون مع الذين كفروا في الجحيم، فـ«الظالم يحوم حوم نفسه، والمقتصد يحوم حوم قلبه، والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه»(١).

فورثة القرآن العظيم علماً وعملاً وتطبيقاً هم المصطفون السابقون المقربون، فوق المقتصدين العدول فضلاً عن الظالمين! ومن ذا الذي يدعي ذلك الاصطفاء العاصم، المعصوم أهله من كل رين وشين! أهم الخلفاء الثلاثة، المعترف بكثير أخطائهم وخلافاتهم وتخلفاتهم بين أتباعهم؟

أم هم الأئمة الأربعة ومن يحذو محذاهم، المختلفين - في أقل تقدير - في تفهم الكتاب والسنة، والمتخلفين أحياناً عن نص الكتاب والسنة.

أم هم الأئمة الاثنا عشر الذين لم يختلفوا فيما بينهم، ولم يتخلفوا قيد

---

(١) في معاني الأخبار مسنداً عن الصادق عليه السلام قال: . . وفي الدر المنثور ٥: ٢٥١ - أخرج جماعة عن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ. . .﴾ [فَاطِر: ٣٢] فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. . .﴾ [فَاطِر: ٣٤].
أقول وقد تظافر مثله في نفس المصدر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو المستفاد من الآية كما بيناه. وفيه عن ابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: ٣٢] قال: الكافر وهو خلاف ظاهر الآية كما بيناه.

شعرة عن الكتاب والسنة، وهم الثقل الأصغر بعد الكتاب - الأكبر؟! وهنا نجد تجاوباً فيهم بين الكتاب والسنة القدسية المحمدية ﷺ (١).

وهنا ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ يخص ﴿سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إذا تكوينياً وشرعياً لسبقهم سائر الخيِّرين في الخيرات وهو العصمة القمة المتعالية، دون ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ حيث الظلم غير مأذون في تشريع ولا تكوين، وكذلك ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ فإن الله لا يقتصر من عباده بالاقتصاد في معرفته وطاعته!

فإذنه تعالى للسابق بالخيرات هو إرادة التطهير وكما في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢).

هنا «بإذنه» وكما في الدعوة الرسالية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٣) ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٤) كما و﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ﴾(٥).

---

(١) في تفسير البرهان ٣: ٣٦٣ عن ابن بابويه القمي بسند عن الريان بن الصلت قال: حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو وقد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان فقال المأمون أخبرني عن معنى هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ...﴾ [فاطر: ٣٢]؟ فقال العلماء: أراد الله عزوجل الأمة، فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن عليه السلام فقال الرضا عليه السلام: لا أقول كما قالوا ولكن أقول: أراد العترة الطاهرة، فقال المأمون: وكيف أراد العترة الطاهرة؟ فقال له الرضا عليه السلام: لو أراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة لقول الله تبارك وتعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾ [الرّعد: ٢٣] فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم، فقال المأمون: من العترة الطاهرة؟ فقال الرضا عليه السلام: الذين وصفهم في كتابه فقال عزوجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وهم الذين قال رسول الله ﷺ: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض انظروا كيف تخلفوني فيهما، أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. (٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[١].

فهنالك للمصطفين السابقين إذن يخصهم، تكويناً في عصمة وتشريعاً في ولاية شرعية، لا يعم سواهم فكما ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢] كذلك ورثة الكتاب طاعتهم مفروضة على من سواهم: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣] الذين وُلّوا وراثة الكتاب بعد وحيه إلى الرسول، فولوا أزمَّة أمور المسلمين كما وُلّي!

ولأن ﴿سَابِقٌ﴾ مطلق غير محدد، فسبقهم - إذاً - مطلق غير محدد، فهم السابقون على كافة المصطفين على مر الزمن في الاصطفاءات، اللهم إلّا من أوحي إليه القرآن!.

ولأن «الخيرات» جمعاً محلّى باللام تعم كافة الخيرات عِدّة وعُدّة، فهي الخيرات المعرفية والعقائدية والعملية. أما هيه، المعنية من ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ المسبوقة بـ«إنما» الحاصرة فيهم قمة العصمة الإلهية.

وليس السبق هنا زمنياً - إذ ليس له فضل على اللّاحق الأفضل، بل هو سبق في الرتبة، كما الرسول في كونه ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[٤] مهما سبق في علم الله وتقديره سبقهم هذا!.

فهؤلاء الأكارم الذين أورثوا الكتاب بعد الرسول ﷺ سبقوا بعده كافة السابقين في ميادين الخيرات ومسارحها، فلذلك يفضَّلون على سائر النبيين في سابق الخيرات طول الزمان وعرض المكان!.

ترى ولماذا يتقدم في هذا العرض العريض ظالم لنفسه على مقتصد وهما

(١) سورة الحج، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

على سابق بالخيرات، والأخير متقدم في ناصية الآية ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ . . . ؟

إنه بيان لطرف الاصطفاء، تقديماً للاكثر أفراداً ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ حيث تربو سيئاته لنفسه على حسناته ثم ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ قد تتعادل سيئاته وحسناته، ثم ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المصطفين من بينهم إذ ليست لهم سيئات!

و﴿ذَٰلِكَ﴾ الوحي للرسول، ثم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيراث لأهل بيت الرسول ﷺ ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إذ لا يساوى ولا يسامى في تاريخ الوحي والرسالات والوراثات.

فحصالة البحث عن آية الوراثة إن ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا هم أصحاب الجنة من المسلمين في درجاتهم الثلاث أدناها ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ دون من يظلم دين الله ويظلم عباد الله، فهم هنا غير موعودين بالجنة، مهما دخلوها بعد حسابات وعقابات أم لم يدخلوها، كما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ يلمح بمدى ظلم الظالم لنفسه، وخروج الظالم لغيره، حيث العفو عنه ظلم بغيره.!

فليس ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا كافة المكلفين، ولا كل المسلمين، وإنما المسلمون الذين مصيرهم إلى الجنة.

والمقتصد هو المعتدل المتعادل في حياته، لا ظالم لنفسه حيث يتبنى حياة العدل مهما ابتلي بلمم، والسابق بالخيرات هم الرعيل الأعلى من المقربين المعصومين من أمة محمد ﷺ وهم الأئمة الاثنا عشر سلام الله عليهم أجمعين.

فهم ورثة الكتاب روحياً في ولاية مطلقة شرعية، وآخرهم القائم منهم يرث الكتاب زمنياً وروحياً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]!

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.